المؤتمر الدولي الثاني: علم الأصوات وتكامل المعارف

في موضوع: التكامل المعرفي بين البلاغة وعلم الأصوات

جامعة القاضي عياض ـ مرّاكش

28 ـ 29 **نوفمبر** 2017

التقابل الثنائيّ: "مخرج حنجري/ مخرج شفوي" ودلالاته في سورة الكوثر

د. عادل محلو

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة الشهيد حمة لخضر. الوادي .

الجزائر

تُعَدُّ التقابلات الثنائية إحدى أهمّ أدوات التحليل اللساني؛ فمنذ ظهور ثنائيات سوسير الشهيرة إلى أعمال جاكوبسون ـ التي امتدّ تأثيرها إلى مجالات معرفيّة أخرى على رأسها الانثروبولوجيا[1]ـ اتّسَمَ التحليل اللساني في كل مستوياته باعتمادها منطلَقا يبني عليه تناوله لمختلف الظواهر اللغوية[2]. وفي هذه الدراسة يتمّ تناول التقابل الثنائي بين: "مخرج حنجري/ مخرج شفويّ" في آيات سورة الكوثر من أجل الوصول إلى دلالات هذا التقابل؛ لأنّ "أيّة محاولة لوصف وتصنيف أصوات لغة ما من دون الأخذ بنظر الاعتبار علاقتها بالمعنى... محكوم عليها بالفشل"[3].

أوّلا ـ التقابل الثنائي: مخرج حنجري/مخرج شفوي:

1ـ في الدراسات اللسانية والصوتية الحديثة:

يمثّل المخرج الحنجري موضع نطق فونيميْ الهمزة والهاء في اللغة العربية، بينما يمثّل المخرج الشفويّ موضع نطق فونيمات الميم والباء والواو نصف الصامت[4]. ولا تنظر الدراسات اللسانية والصوتية إلى هذين المخرجين بنفس الدرجة من الأهميّة؛ إذ تعتبر المخرج الشفويّ أساسيا في الأنظمة الصوتية للُّغات كافة[5]، إضافة إلى المخرجيْن الأسنانيّ والطبقيّ اللذيْن يكملان أضلاع المثلث الصامتيّ الذي يمثّل الحدّ النموذجيّ الأدنى للصوامت في مختلف لغات العالم[6]:

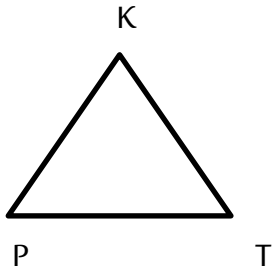

الشكل 1: مثلّث الصوامت الأساسية

ولعلّ أهمية المخرج الشفوي هذه ـ مقارنة بالمخرج الحنجري ـ ناتجة عن عدم وجود فونيمات حنجرية أساسية في أنظمة بعض اللغات، و لعلّه كان وراء قول سوسير عند حديثه عن جهاز النطق ووظيفته: "يجب أن نلاحظ أنّ الانسداد الكامل لهذا المزمار لا يهمّنا في شيء إن صحّ التعبير. أمّا

---

(1) - dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, p: 67.

(2) ـ تجدر الإشارة هنا إلى توجّه بيرس إلى البحث عن التقابلات الثلاثية بدل الثنائية. (انظر: خمسون مفكّرا أساسيا معاصرا: من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ص: 301).

(3) ـ ستّ محاضرات في الصوت والمعنى، ص: 121.

(4) ـ انظر: علم الأصوات بين القدامى والمحدثين، ص: 93 ـ 94.

(5) ـ النظام الصوتي التوليدي، ص: 32 ـ 33.

(6) ـ انظر: أساسيات اللغة، ص: 85 ـ 86.

انفتاحه فتارة يكون متسعا وتارة يكون ضيّقا..."[7]. ولكن ذلك لا يعني عدم أهميّة المخرج الحنجريّ؛ لأنّ فونيميْ هذا المخرج ضمن قائمة الفونيمات الـ:22 الأكثر شيوعا في لغات العالم[8].

2- في الدرس التراثي العربي:

وإذا كانت الدراسات اللسانية والصوتية الحديثة تميّز بين هذين المخرجيْن في الأهميّة ضمن الأنظمة الصوتية للّغات فإنّ مكانتهما في النظام الصوتي للغة العربية أساسيّ ومركزيّ، والسبب في ذلك موضعيْهما في جهاز نطق الأصوات العربيّة؛ فكلاهما يشكّل الطرف الأقصى فيه، فالمخرج الحنجريّ يمثّل الطرف الأقصى عمقًا وغورًا، بينما يمثّل المخرج الشفويّ الطرف الأقصى بروزًا وظهورًا[9].

وهو ما لاحظه الدارسون العرب القدامى منذ بدايات الدّرس اللغوي العربيّ؛ حيث أسّس سيبويه (ت 180 هـ) للاصطلاح على تسمية المخرج الحنجريّ بـ: "أقصى الحلق"[10] في دلالة على كونه أعمق مخارج الأصوات العربية. أمّا بالنسبة للمخرج الشفويّ فقد كان لتموْضعه في الطرف الأبرز لجهاز النطق الدّور الأساسيّ في ملاحظته بالعين المجرّدة، وهو ما قادَ أبا الأسود الدؤليّ (ت 69 هـ) ـ في مرحلة مبكرة جدا من الدرس اللغوي العربي ـ إلى وضع علامات كتابيّة انطلاقا من ملاحظة أوضاع الشفتين المختلفة: فتحا وضمّا وكسرا[11].

وقد لخّص ذلك المرعشيّ (ت 1150هـ)، وهو أحد علماء القراءات المتأخّرين، فقال: "إنّ في ترتيب المخارج اعتباريْن: أحدهما... أنْ يكون أوّل المخارج أقصى الحلق وآخرها خارج الشفتيْن. والآخر: أنْ يكون أوّل المخارج خارج الشفتيْن، وآخرها أقصى الحلق"[12].

ولا يعني هذا التموضع في طرفي جهاز النطق عدم وجود روابط بين المخرجيْن؛ فقد انتبه ابن سينا (ت 428 هـ) إلى العلاقة بين المخرج الحنجريّ العميق والمخرج الشفويّ البارز حين قال: "... ونسبَةُ الباء إلى الفاء(*) عند الشفة نسبةُ الهمزةِ إلى الهاء عند الحنجرة"[13]. إنّه ـ بلغة معاصرة ـ يشير هنا إلى أنّ عمل الوتريْن الصوتييْن في الحنجرة مماثل لعمل الشفتين من حيث حبسهما التام أو الجزئي للهواء عند النطق.، وهو توجّه صائب من حيث وظيفتيهما التي لم تشر إلى تماثلها الدراسات

---

[7] ـ محاضرات في علم اللسان العام، ص:69.

[8] ـ انظر: الصوتيات، ص:103 ـ 104.

[9] ـ انظر موضعيهما في طرفيْ جهاز النطق في شكل جهاز النطق وتوزّع المخارج العربية فيه.(مدخل في الصوتيات، ص: 59. (الشكل:25))

[10] ـ انظر: الكتاب، جـ:4، ص: 433.

[11] ـ انظر قصّة أبي الأسود الدؤلي وكاتبه في: معجم الأدباء، جـ:4، ص: 1466.

[12] ـ بيان جهد المقل، المرعشي، الورقة 9 (مخطوط)، نقلا عن: المدخل إلى علم أصوات العربية، ص: 86.

[*] ـ إن اعتبار ابن سينا الفاء حرفا شفويا يتقاطع وما تذهب إليه الدراسات اللسانية الحديثة التي تعتبر الصوت الصادر بمشاركة الشفتين معا او إحداهما صوتا شفويا، وهو حال الفاء هنا. في هذا المفهوم انظر: معجم اللسانيات، ص:264 ـ 265.

[13] ـ أسباب حدوث الحروف، ص: 83.

المعاصرة، ولكنها أشارت إلى تشابه بنيتهما الفيسيولوجية حين شبّه الكثير منها الوترين الصوتييْن بشفتَيْنِ[14].

إذن؛ يشكّل: "المخرج الحنجري/المخرج الشفويّ" تقابلا ثنائيّا؛ من حيث تماثل آلية عملهما، ومن حيث تموضعهما في طرفيْ جهاز النطق، وذلك ضمن ثنائيّة: "عميق/بارز". ولأنّ "كلّ وحدة تنتمي إلى مستوى معيّن لا تمتلك معنى إلا إذا استطاعت الاندماج بمستوى أعلى"[15]، فإنّهُ سيتمّ تناول هذا التقابل الحاصل في أدنى مستويات التحليل اللساني: "المستوى الصوتيّ"، للوصول إلى ما يمثّله في أعلى مستويات التحليل اللساني: "المستوى الدلاليّ"، وسيكون ذلك في مدوّنة قرآنيّة هي: "سورة الكوثر".

---

[14] ـ تشير دراسات حديثة ومعاصرة كثيرة إلى هذا التشابه نذكر من بينها:

- dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Jean Dubois et autres, p: 122.

ـ علم الأصوات، ص:46.

[15] ـ من البنيوية إلى الشعرية، ص:19.

ثانيا ـ سورة الكوثر وبنيتها المخرجيّة:

1ـ سورة الكوثر:

"عن أنس قال بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغْفاءةً ثمّ رفع رأسه مبتسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أُنزِلت عليّ آنفا سورة فقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرِ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾)"[16].

وهي "أقصر سور القرآن عددَ كلمات وعدد حروفٍ"[17]. وستكون هذه السورة ـ كما سلف ـ مدوّنة هذه الدراسة لتُفْحص بنيتها الصوتية من حيث تقابل: "مخرج حنجري/ مخرج شفويّ"، ثمّ ربط ذلك بدلالات آياتها لأنّ "غاية أيّ تحليل هي مطاردة المعنى وترويضه وردّه إلى العناصر التي أنتجَتْهُ"[18]، وهو ما سيتمّ في إطار ما تقدّمه كتب التفاسير من دلالات لآيات هذه السورة الكريمة.

2. البنية المخرجية للسورة:

تحدّد الدراسات الصوتية العربية المعاصرة عشر مخارجَ تصدُر منها فونيمات اللغة العربية[19]، وتتوزّع هذه المخارج على سورة الكوثر وآياتها كالآتي:

	الحنجري	الحلقي	اللهوي	الطبقي	الغاري	اللثوي	اللثوي الأسناني	الأسناني	الشفوي الأسناني	الشفوي
الآية 1	2	1	0	2	1	5	1	1	0	1
الآية 2	0	1	0	1	0	6	1	0	1	3
الآية 3	3	0	0	1	1	5	1	0	0	2
المجموع	**5**	2	0	4	2	16	3	1	1	**6**
النسبة	**%12.5**	% 5	% 0	% 10	% 5	% 40	% 7.5	% 2.5	% 2.5	**% 15**

الشكل 2: جدول توزّع المخارج في سورة الكوثر

نسجّل من خلال هذا الجدول حضور المخرجين الحنجري والشفوي في نصّ السورة بـ: 5 تكرارات للأوّل و: 6 للثاني، وهما من أكثر المخارج حضورا في السورة؛ حيث يحتلان المرتبتين

[16] ـ تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، جـ:4، ص: 425.

[17] ـ التحرير والتنوير، جـ: 30، ص: 573.

[18] ـ السيميائيات السردية، ص:12.

[19] ـ انظر: المدخل إلى علم أصوات العربية، ص: 86.

الثانية والثالثة بنسبة: 15 % للشفويّ و: 12.5 % للحنجري. كما أنّهما يَظهَران في كلّ الآيات الثلاث، باستثناء الآية الثانية التي يغيب فيها المخرج الحنجريّ.

وكان حضور المخرجيْن متفاوتا من آية إلى أخرى؛ حيث سجّلا نسبا مختلفة في كلّ واحدة منها، وهو ما يجسّدُه المحنى البياني الآتي:

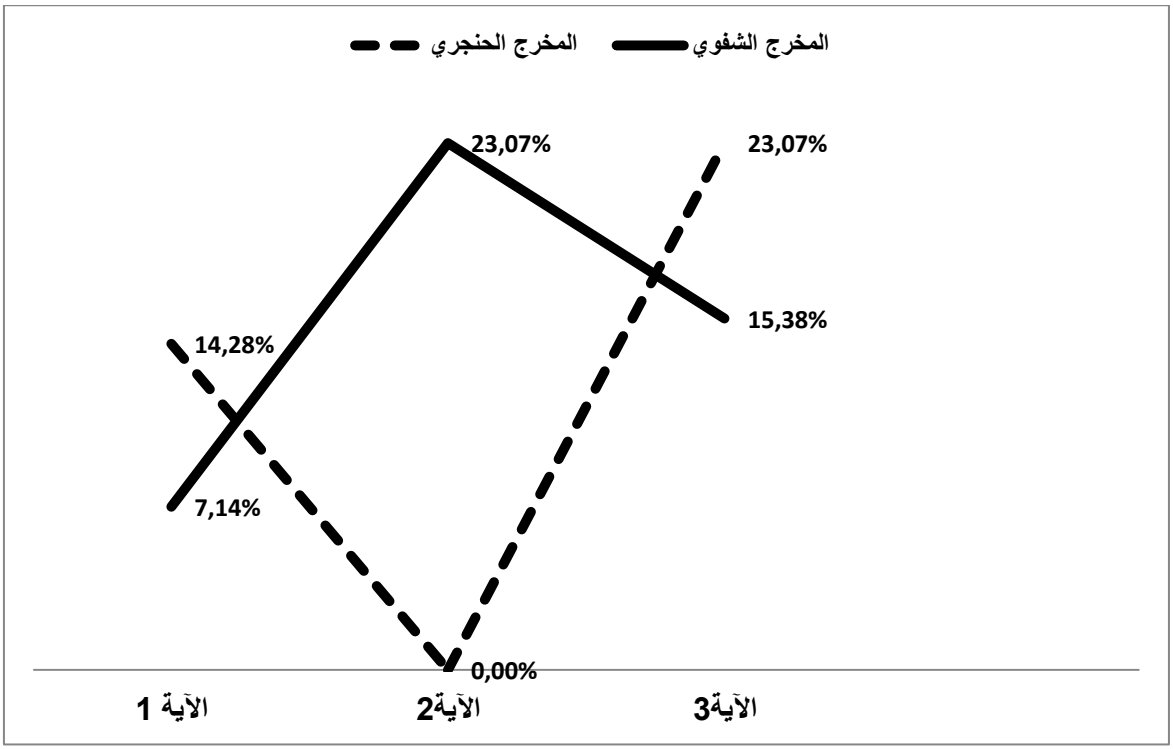

الشكل 3: نسب حضور المخرجين الحنجري والشفوي في سورة الكوثر

إنّ ما يكشفه هذا المنحنى يتجاوز إبراز نسب حضور المخرجين في آيات سورة الكوثر؛ إنّ الهدف منه هو كشف سلوكهما الذي يجسّد تقابلا ثنائيّا دالًّا، فهما يتنافران فلا يتماشيان معا ارتفاعا أو انخفاضا، ويرسمان شكليْن متعاكسيْن. إنّ سلوكهما هذا يمثّل ما يصطلح عليه فونولوجيا بـ: التضادّ، وهو حاسمٌ جدّا؛ لأنه ـ كما يقول تروبتزكوي ـ : "لا يجب أن يغيب عن بالنا، أنّ الدّور الأساسيّ في الفونولوجيا لا يرجع إلى الوحدات الصوتيّة. وإنّما إلى ضروب التضادّ الفارقة المميّزة"[20].

وهذا التضادّ بين المخرج الحنجري/ المخرج الشفويّ هو جانب البنية الصوتية لسورة الكوثر الذي سيتمّ البحث في دلالاته اعتمادا على جهود المفسّرين وأقوال العلماء والعارفين، وهو ما سيُتناول آيَةً آيَةً ثمّ في نصّ السورة ككلّ إن شاء الله.

[20] ـ مبادئ علم وظائف الأصوات ص: 74.

ثالثا ـ دلالات التقابل الثنائي: مخرج حنجري/مخرج شفوي في سورة الكوثر:

1 ـ في الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) ﴾.

في هذه الآية بشارةٌ من الله عزّ وجلّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم بهبة إلهيّةٍ خصَّهُ بها دون سائر خَلْقِه والمقرّبين من الملائكة والأنبياء المتقدّمين، وهذه الهبة هي: "الكوثر"[21]. إنّ هذه الآية تبيِّن علاقةً بين عالَميْ: الغيب/ الشّهادة[***]؛ الأوّلُ متمثّلٌ هنا في الذات الإلهية، والثاني متمثّلٌ في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي الّتي تتجسّدُ لغويّا في نصِّها بيْن: (إنّا / ك "كاف أعطيناك"). هي علاقة إذن بين وجود ما ورائيّ، غير مرئيّ لا يُدرَكُ بالحَواسِّ:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [22] ، و:﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ***وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ*** ﴾[23]، ووجودٍ مرئيّ محسوس؛ إنّها علاقة بين طرفيْ الوجود: "الغيب/ الشهادة " كتموْضُعِ المخرج الحنجري والمخرج الشفويّ في طرفيْ جهاز النطق، أحدهُما في الطرف العميق غير المرئيّ الذي لا يُبْصَرُ ولا يُدْرَكُ بالحواسّ، والآخَرُ في الطرف البارز لعَيْنِ الرّائي المُدْرَكِ بالحَواسّ.

وهذه العلاقة بين العالَميْن ليست بالمتكافئة؛ إذ يتفوّق هنا عالَم الغيب على عالَم الشهادة من حيث الفاعليّة والحضور، فهو الواهِبُ، وهو مصدر الهبة العظيمة، تماما كما أنّ المخرج الحنجريّ هو الذي يهَبُ الفونيمات الشفوية العربيّة شخصيتها الصوتيّة من خلال صفة الجهر التي تلازمها جميعا[24]، وكما أنّه مصدر كلّ تصْويتٍ[25].

ولأنّ الغيب في قوله تعالى: "إنّا" جَمْعٌ ودالّ على التعظيم[26]، آخِذٌ بمكان الصدارة من الكلام، سُجِّلت وفرة استعمال المخرج الحنجري وعلوّ نسبة حضوره في هذه الآية الأولى من سورة الكوثر، في مقابل الكاف (في أعطيناك) الممثلة لعالم الشهود الدّالة على الإفرادِ والتي لا تتصدّرُ الكلام، كقلّة استعمال المخرج الشفويّ وانخفاض نسبة حضوره.

فعالَم الغيب أكثر فاعليّة وحضورا في هذه الآية من عالم الشهادة، وهو ما يتجسّدُ في نسبة حضور المخرج الحنجري مقارنة بالمخرج الشفوي؛ وذلك بنسبة: 14.28 % للأوّل، وبنصف قيمة هذه النسبة: 7.14 % للثاني.

إذن؛ في هذه الآية الأولى من سورة الكوثر ترتبط الدلالة على عالم الغيب المتواري عن الإدراك الحسّي للبشر المتلقين للوحي بالمخرج الحنجري المتواري عن نظر متلقّي الكلام، كتواريه

---

[21] ـ انظر: تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب) ، جـ: 32، ص: 121.

[***] ـ للتفصيل في خصائص عالَمي الغيب والشهادة ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون، ص: 1158.

[22] ـ الشورى، الآية:11.

[23] ـ الأنعام، الآية:103.

[24] ـ انظر: مدخل في الصوتيات، ص: 81.

[25] ـ انظر: أطلس أصوات اللغة العربية، ص: 911.

[26] ـ انظر: تفسير الفخر الرازي، جـ:32، ص: 121.

عن كاتب أبي الأسود الدؤليّ الذي لم يكن بإمكانه ملاحظة هذا المخرج العميق في مقابل المخرج الشفويّ البارز الذي يمكن أن تُلاحَظَ أوضاعه وحركتُهُ بيُسرٍ وسهولة[27].

إضافة إلى عالميْ الغيب والشهادة تتحدّث الآية الأولى من السورة عن بشارةٍ ربّانيّة بِهِبةٍ لرسوله صلى الله عليه وسلم هي:"الكوثر". وتتميّز هذه الهبة بكونها غيبيّة في نواحي عديدة؛ فهي من حيث ماهيتها مُختلفٌ في تفسير المراد منها حتّى بلغت الأقوال في ذلك ستّة وعشرين قولا[28]، ومختلَفٌ فيها من حيث قدمها في الأزل أو عدمه ؛ إذْ لعلّها "ممّا سعى في تحصيلها الملائكة وجبريل وميكائيل والأنبياء المتقدّمون"[29].

كما اختلفوا من جهة ميعاد تحقّقها وتنعّم الموهوب له بها اختلف المفسّرون أيضا على أقوال ثلاثة:

ـ منهم من رأى أنّها ممّا أُعطيه في الدنيا والآخرة، فلقد "أراد بالكوثر... ما أعطاهُ الله في الداريْن من مزايا الأثَرة والتقديم"[30].

ـ ومنهم من جعلها هبة متحقّقة في الدنيا، كقول الحسن بأنّ المقصود بالكوثر هو القرآن.

ـ ومنهم من قال إنّها هبة أخروية مفسّرين الكوثر بنهر في الجنّة أوتيهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قول الجمهور.

إنّ هذه الغيبيّة التي تكتنف دلالة الكوثر من نواحي عديدة جعلت المفسّرين لا يرون له دلالة محدّدة، فهي في موضع بعيد عن رؤيتهم تماما كبعد موضع المخرج الحنجريّ عن نظر السامع؛ فكلاهما عصيّ على النظر، نظرُ البصيرة عند متلقّي القرآن ومفسّريه، ونظر البصر عند متلقّي كلام المتكلّم.

2- في الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرِ (2)﴾.

في هذه الآية الثانية من السورة أمرٌ ربّانيّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم بالصلاة لله والنحر له؛ إنهما طاعتان مرئيّتان شكرا على الهبة الغيبيّة، فالفاء في أوّل الآية "للتفريع على هذه البشارة بأن يشكر ربّه عليها"[31]. إنّ طبيعة وطريقة أداء هاتين العبادتيْن تجعلهما بحركاتهما وسكناتهما ظاهرتيْن للآخرين كظهور حركات وسكنات الشفتيْن؛ فقد "أشارَ بهاتين العبادتيْن إلى نوْعيْ العبادات، وصنفيْ الطاعات، أعني الأعمال البدنيّة التي الصلاة إمامها، والماليّة التي نحْر البُدْنِ سنامها"[32].

إنّهُما، إذن، عبادتان لا تؤدّيان إلا جهارا؛ بل إنّهما لا تكونان إلا في جمع من الناس، وفي صعيد وساحة فسيحة، لأنّ المراد بهما، إذا ما أخذنا برأي القائلين بمدنية السورة، صلاة العيد والنحر

---

[27]ـ انظر: علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، ص: 139.

[28]ـ انظر: البحر المحيط، جـ:8، ص: 520.

[29]ـ انظر: تفسير الفخر الرازي، جـ:32، ص: 121.

[30]ـ إعجاز سورة الكوثر، ص: 56.

[31]ـ التحرير والتنوير، جـ: 30، ص: 573-574.

[32]ـ إعجاز سورة الكوثر، ص: 58.

فيه[33]. وأمّا إذا ما أخذنا برأي القائلين بمكّيتها فإنّ المراد بالعبادتين مجاهرة النبيّ صلى الله عليه وسلم بالصلاة أمام الكعبة على مرأى من قريش وصناديدها، والمراد بالنحر إعْلامٌ بانتقال حاله من الفقر إلى الغنى، فبعد أن حقّق الغنى الروحيّ بالنبوّة وبهذه المكانة التي خصّه بها المولى عزّ وجلّ، فإنّهُ سيحقّق الغنى الماديّ بحيث ينحر المائة من الإبل[34]، فيبرُز إنعام ربّه عليه في الظاهر بعد أن كان في الباطن.

هذه الدلالات التي تكتنف العبادتيْن المأمور بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم تتّسق وموضع المخرج الشفويّ من حيث الظهور للآخرين والبروز للرؤية والملاحظة، كما تنسجمُ وطبيعة حركات الشفتين صعودا ونزولا لكونهما عبادتين بدنيتيْن تقومان على حركة الجسد في اتجاهات مختلفة، وهو ما جعل هذا المخرج يحقّق في هذه الآية الثانية من سورة الكوثر أعلى نسبة حضور له في كلّ السورة: 23.07%. وفي الوقت نفسه تجعل هذه الدلالات تينك العبادتيْن بعيدتين عن ملاءمة المخرج الحنجريّ العميق الغائر الذي لا يُرى ولا تُلاحَظُ حركَتُهُ عند النطق، ليسجّل في هذه الآية غيابًا كليًّا بنسبة: 0 %.

لا تتوقّف دلالات التقابل الثنائي: "مخرج حنجريّ/ مخرج شفويّ" في هذه الآية الثانية من سورة الكوثر عند طبيعة وطريقة أداء هاتين العبادتيْن؛ بل تتعدّاهما إلى وجه آخر وهو وظيفتهما والغاية منهما. فالمولى عزّ وجلّ أمَرَ نبيّهُ صلى الله عليه وسلم بالصلاة والنحر وإظهارهما جهارا لمواجهة نمط صلاة مشركي قريش ونحرهم؛ إنّ الهدف من ذلك جهاد المشركين، إذْ "لم يكن في ذلك الوقت جهادٌ فأُمِرَ بهذيْن"[35] كما يقول أبو حيّان في البحر المحيط.

كان المشركون يصلّون وينحرون، لكنّها كانت موجَّهة للأوثان لا إلى الله عزّ وجلّ، فأمر الله نبيّهُ صلى الله عليه وسلم بإظهارِ طريقة صلاته الخاشعة لمواجهة صلاتهم التي كانت صفيرا وتصفيقا[36] بلا خشوع ولا سكينة، قال تعالى: ﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إلاّ مُكآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [37]، وأَنْ يُظْهر نَحْرهُ الخالص لوجه الله لمواجهة نحرهم الذي لم يكن إلا مُفاخَرَةً و رياءً. وفي ذلك كلّه يسيطر الإبراز والإظهار، كبروز المخرج الشفويّ وظهوره، فبالرّغم من كون العبادة صلة بين العبد وربّه، بين عالم الشهادة وعالم الغيب ـ وهو ما يناسب حضور المخرج الحنجري الغائر العميق ـ بالرّغم من ذلك إلاّ أنّ الغاية هنا مختلفةٌ؛ فالصلاة والنحر في هذه الآية مأمور بهما مُواجَهةً لصلاة المشركين ونحرهم، ولا يتمّ ذلك إلا بإظهارهما وأدائهما جهارا أمام أعينهم، وهو ما يجعل حضور المخرج الحنجريّ غير مناسب لدلالات الآية، ويدفع به إلى الغياب عنها، ليحضُر المخرج المقابل له: "المخرج الشفويّ" لكونه أنسَب لتلك الدلالات.

ويمتدّ الظهور والبروز ـ المناسبان للمخرج الشفويّ ـ ليتجسّدا من خلال خصوصية عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فـ: "لقد صلّى حتّى تورّمَت قدماهُ، فقيل له: أوليس قد غُفر لك ما تقدّ من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكورا"[38]، كما أنّهُ قال: "ثلاثٌ هنّ عليّ فرائضُ، وهنّ لكم

---

[33]ـ انظر: تفسير ابن كثير، جـ:8، ص: 503.

[34]ـ انظر: تفسير الفخر الرازي، جـ:32، ص: 132.

[35]ـ البحر المحيط، جـ:8، ص: 521.

[36]ـ انظر: تفسير الطبري، جـ:4، ص: 35.

[37]ـ الأنفال، الآية: 35.

[38]ـ تفسير الفخر الرازي، جـ:32، ص: 131.

تطوّع: الوِترُ، والنَّحرُ، وصلاة الضحى"[39]، إنّهُ إظْهارٌ للطّاعة بشكل أكثر من المؤمنين الآخرين في مقابل الإنعام اللامحدود الذي تمثّل بعضه في الهبية الإلهية الواردة في الآية الأولى: "الكوثر".

لقد ارتبط إنعامُ المولى عزّ وجلّ في الآية الأولى بضمير المتكلّم: "إنّا" الممثّل لعالم الغيب اللامرئيّ واللامحسوس، وبضمير المخاطَب: "ـك ـ في أعطيناك" الممثّل لعالم الشهادة المرئيّ المحسوس. أمّا في هذه الآية الثانية فيسيطر ضميرُ الفاعل المُخاطَب: "أنتَ ـ ـك في ربّك" الدالّ على عالم الشهادة وما يجري فيه؛ فالفاعِلُ ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ظاهرٌ بارِزٌ مرئيّ ومحسوسٌ لا غيبيّ كما في الآية الأولى. ولأنّ: "الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء"[40]؛ فعالم الغيب ـ المسيطر على الآية الأولى ـ للثواب والعقاب وعالم الشهادة ـ المستحوذ على الآية الثانية ـ للعمل والطاعة، وهو ما يتناسب مع حضور المخرج الشفويّ وغياب المخرج الحنجريّ في هذه الآية الثانية.

وفي الحقيقة فإنّ الفاعِلَ هنا مأمورٌ لا آمِرٌ، ومُنفعِلٌ لا فاعل؛ فهو يؤدّي العبادة كما أُمِر: ﴿فاستَقِمْ كَمآ أُمِرْتَ﴾[41]، ولذلك غاب المخرج الحنجريّ غيابا تامّا لأنّ الفاعل الحقيقي لا يظهر في نصّ الآيةِ ويحلّ محلّه المَأمور بالقيام بالفعل.

وهذه العبادة التي أُمِر بها إنّما كانت ـ كما قال ذو النون ـ ليَذْبحَ هواه في قلبه[42]، فلا يتّبع صوت النّفسِ التي تأمُرُ ـ كما في سورة الماعون السابقة لسورة الكوثر في ترتيب التلاوة ـ بالبخل:﴿ولا يَحُضُّ على طَعامِ المِسْكينِ﴾[43]، وترك الصلاة والريّاء فيها: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صلاتِهِمْ ساهُونَ (5) الّذينَ هَمْ يُراءُونَ(6)﴾[44]، وتأمُرُ بمنع الزكاة:﴿يَمْنَعُونَ المَاعُونَ﴾[45]. لقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم النَّفْس فقال: "أعدى عدوّك النّفس التي بين جنبيْك"[46]؛ هذه النّفسُ التي تجيش شهواتها في غياهيبها الخفيّة، العميقة كخفاء وعمق المخرج الحنجريّ، لا يمكن مواجهتها إلا بإظهار الطاعة والخضوع لله تعالى كظهور المخرج الشّفويّ، وقهر تلك الشهوات الكامنة في النفس بتسخير البدن للاجتهاد في العبادة فـ: "أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان"[47].

3- في الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ(٣)﴾.

تعرِض هذه الآية إحدى المحن التي ابتُلِيَ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن قومه الذين رموه بكلّ ما ظنّوه مُنْقِصا من قدره الشّريف ومن قيمته بين النّاس، فها هم يرمونه بكونه: "أبترًا"؛ أي

---

[39]ـ مسند أحمد، جـ:3، ص: 485.(حديث رقم: 2050).

[40]ـ الزهد الكبير، ص:282.

[41]ـ هود، الآية: 112.

[42]ـ انظر: تفسير الثعلبي (الكشف والبيان في تفسير القرآن)، جـ:6، ص: 568.

[43]ـ الماعون، الآية: 3.

[44]ـ الماعون، الآية: 5-6.

[45]ـ الماعون، الآية: 7.

[46]ـ الزهد الكبير، ص: 157.

[47]ـ السابق، ص: .282

بلا خلف من الذكور، أو قليلَ الخير الذي لا يبلغ مقصده[48]. وهكذا يدخل في هذه الآية عنصرٌ ثالثٌ يُشار إليه في الآية الكريمة بالضمير: "هو"، وذلك بعد أن اقتصرت الآيتان الأوليان على الضميرين: أنا ⟷ أنت.

ومن أجل هذا التشابك في العلاقات بلغت نسبة حضور المخرجين الحنجري والشفوي في هذه الآية الثالثة أعلى نسبة لها مقابلة بالآيتين الأولى والثانية: 23.07% للأوّل و: 15.38 % للثّاني. وبهذا تتجاوز هذه الآية الثالثة من سورة الكوثر النمط السيميائي الثنائي للعلاقات في القرآن الكريم: "الله/ البشر، البشر/ البشر، البشر/ الرسول، البشر/ الكون..."[49]، للتحوّل إلى نمط ثلاثيّ: "الله/ الرّسول/ البشر".

ومن الناحية المخرجية فإنّ بلوغ نسبة المخرجين أعلى درجة في السورة، وإسهام عدد أكبر من أصواتهما مقابلة بالآيتين السابقتيْن:

	الفونيمات الحنجرية	**الفونيمات الشفوية**
الآية 1	**ء**	**و**
الآية 2		**ب ـ و**
الآية 3	**ء ـ هـ**	**ب ـ و**

الشكل 4: توزّع الفونيمات الحنجرية والشفوية على الآيات

هذان الأمران يشيران إلى تداخُل الفاعلين في عالميْ الغيب والشّهادة؛ فرمْيُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبَتْرِ تَدَخّلٌ بشَرِيّ في عالم الغيب. كما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر في هذه الآية بشقّيه: البشريّ المنتمي لعالم الشهادة بكونه مُنْجِبًا، والنبويّ المنتمي إلى عالم الغيب بكونه رسول الله الذي يدفَعُ عنه في هذه الآية ما وصفه به شانِئُهُ؛ لأنّه ـ كما يقول فخر الدين الرازي: "إنّ الحبيبَ إذا سمع من يشتم حبيبَهُ تولّى بنفسه جوابَه. فهنا تولّى الحقّ سبحانه جوابهم"[50].

إنّ بلوغ نسبة المخرج الحنجريّ قمة ارتفاعها في هذه الآية دليل على التدخّل المباشر لعالم الغيب في عالم الشّهادة، وهو تدخّل خفيّ خفاء المخرج الحنجريّ؛ حيث ارتبطَ بمستقبل قريب لا يدركُ عند نزول الآية وإنّما تُشاهَدُ آثارهُ في المقبِلِ من حياة رسول الله وحياة شانئه، وهو الّذي تحقّق بمصير الشانئ الذي انتهى أبترًا، قليل الخير بموته مشركا، ومنقطع الذرّية بدخولهم الإسلام وجهادهم في سبيله.

ومقابلة بالآيتيْن الأوليْن يظهر أنّ حضور المخرجيْن في هذه الآية الثالثة رغم ارتفاعه لا يمنع من ملاحظة تقارب نسبتيْهما هنا؛ إذ في الآية الأولى كانت نسبة الحنجري ضعف نسبة الشفويّ، وفي

---

[48]ـ تفسير القرطبي، جـ:20، ص: 223.

[49]ـ سيمياء الأنساق، ص: 25.

[50]ـ تفسير الفخر الرازي، جـ:32، ص: 134.

الثانية كان الفرق 23.08 %. أمّا هنا في الآية الثالثة فإنّ الفرق بينهما لم يبلغ الضعف حيث إنّ ضعف 15.38% هو: 30.76%، بينما المتحقق هنا هو فقط: 23.28%.

ففي الآية الأولى كان عالم الغيب مسيطرا وغالبًا، فالمانح والمنحة: "الله، الكوثر" غيبيان. وفي الثانية سيطر عالم الشهادة حين دلّ على العبادات التي يقوم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاة ونحر. أمّا في الآية الثالثة فقد تقارب العالمان بتأثير عالم الغيب في عالم الشهادة تأثيرا مُدركًا ملموسا مرئيّا بعد حينٍ في حياة رسول الله ومن حوله بتحقّق وعيد الله لعدوّه؛ إذ صارَ "الفانيَ بالحقيقة الهالك الذي لا يوجد ولا يُذكر ولا يُنسَبُ إليه ولدٌ حقيقةً"[51]، وأمّا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد تحقّق له أنّ "جميع المؤمنين أولاده، وذِكْره مرفوع على المنائر والمنابر، ومسرود على لسان كلّ عالم إلى آخر الدّهر"[52].

لقد تكفّل تفاوت حضور المخرجين الحنجري والشفويّ وغيابهما التام أو الجزئيّ في آيات السورة بإبراز حركة عالميْ الغيب والشهادة في كلّ واحدة منها، وهو وجه من وجوه إعجاز لغة القرآن الكريم، وباب من أبواب بلاغته؛ إذ لا يعمل المكوّن الصوتيّ للنصّ القرآنيّ منفصلا عن المكوّن الدّلاليّ، بل يتكاملان في تناسق وانسجام لتبليغ مقاصد هذا النصّ المقدّس عبر مستويات تلقٍّ متعدّدة، أحدُها هو هذا المستوى التكامليّ بين مكوّنيه الصوتي والدلاليّ.

---

[51]- تفسير الخازن، جـ:4، ص: 475.

[52]- البحر المحيط، جـ:8، ص: 521.

المصادر والمراجع:

ـ القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

1ـ أساسيات اللغة، رومان جاكوبسون و موريس هالة، تر: سعيد الغانمي، كلمة، أبو ظبي ـ المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2008.

2 ـ أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، تحـ: يحي مير علم و: محمد حسان الطيان، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق.

3ـ أطلس أصوات اللغة العربية، د. وفاء البيه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1، 1994.

4ـ إعجاز سورة الكوثر، الزمخشري، تحـ: حامد الخفّاف، دار البلاغة، بيروت، ط1، 1991.

5ـ البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي، تحـ: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرِين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.

6ـ التحرير والتنوير، الشيخ الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.

7ـ تفسير ابن كثير، ابن كثير، تحـ: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط2، 1999.

8. تفسير الثعلبي (الكشف والبيان في تفسير القرآن، الثعلبي)، تحـ: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.

9. تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، الخازن، طبعة حسن حلمي الكتبي، 1317 هـ.

10ـ تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير الطبري، تحـ: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط 1، 2001.

11ـ تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، ط1، 1981.

12ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1950.

13ـ خمسون مفكّرا أساسيا معاصرا: من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، جون ليشته، تر: د. فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008.

14ـ الزهد الكبير، البيهقي، تحـ: عامر أحمد حيدر، دار الجنان ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط 1، 1987.

15ـ ستّ محاضرات في الصوت والمعني، رومان ياكوبسون، تر: حسن ناظم و:علي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي،بيروت، ط1، 1994.

16ـ سيمياء الأنساق، د. آمنة بلعلى، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2013.

17. السيميائيات السردية، سعيد بنكراد، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2012.

18ـ الصوتيات، جاكلين فيسيار، تر: بسام بركة و روز الكلش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2013

19ـ علم الأصوات، برتيل مالمبرج، تر: د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، 1988

20. علم الأصوات بين القدامى والمحدثين، د. عادل محلو، مطبعة مزوار، الوادي، الجزائر، ط1، 2009.

21ـ علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت.

22. الكتاب، سيبويه، تحـ: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ـ دار الرفاعي، الرياض، ط2، 1982.

23- كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، تحـ: علي دحروج و: رفيق العجم، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1، 1996.
24- مبادئ علم وظائف الأصوات، تروبتزكوي، تر: عبد القادر قنيني، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط 1، 1994
25- محاضرات في علم اللسان العام، فرديناند دي سوسير، تر: عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2008
المدخل إلى علم أصوات العربية، د. غانم قدوري الحمد، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 2002
26. مدخل في الصوتيات، عبد الفتاح ابراهم، دار الجنوب، تونس.
27- مسند أحمد، تحـ: شعيب الأرناؤوط و: عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1995.
28- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحـ: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1993
29- معجم اللسانيات، إشراف: جورج مونان، تر: د. جمال الحضري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2012
30. من البنيوية إلى الشعريّة، رولان بارت وجيرار جينيت، تر: د.غسّان السيّد، دار نينوى، دمشق، ط1، 2001.
31- النظام الصوتي التوليدي، ستانفورد، تر: د. نوزاد حسن أحمد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2010.
32 - dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Jean Dubois et autres, Larousse – Bordas, Paris, 1999.